شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٧٥

فريضة الاجتماع وفضلها

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

فريضة الاجتماع وفضلها [١] ١

- فريضة الاجتماع ٢
- ماهية الاجتماع ٣
- الاجتماع مع الكافر ٤
- فضل الاجتماع وخطر التشرذم ٥
- الاختلاف القدري في الأمم ٨
- مآل الاجتماع المادي والاجتماع الشرعي ١١
- كيفية التعامل مع الطوائف المتعددة في البلدان ١٣

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=xqbzeWTz5HI

فريضة الاجتماع

الاجتماع من آكد شيء في الشريعة ولا يوجد شيء بعد التوحيد أهميةً من الاجتماع بل إنه لا يكون للأمة شوكة وإقامة شرائع وثبات في الدين إلا باجتماعها ، وبهذا نعلم أنه فريضة لأنه وسيلة وجسر تقوم عليه شرائع الإسلام جميعها سواء من أركان الإسلام أو من الشرائع التي لا تقوم إلا بجماعة ، فالشرائع منها ما يكون بالاجتماع ومنها ما يكون بذات الإنسان من العبادة الذاتية والذكر والتفكر والتأمل وبعض العبادات الخاصة التي لا أثر للاجتماع عليها غالبًا ، وأما بقية الشرائع العظام فلا تكون إلا بالاجتماع كالصلوات والزكاة فلا تجمع الزكاة وتقسم على الفقراء إلا باجتماع الأمة وكذلك الحج والجهاد وإقام الحدود وغيرها من الشرائع فوجب على الأمة أن تجتمع ولو قصرت في بعض الجزئيات .

كثير من الناس يعرفون قيمة الاجتماع من جهة الإجماع ولا يعرفون حقيقته من جهة أثره على الأمة وما يحقق من مصالح وربما تعلقوا ببعض الجزئيات التي تنقض الاجتماع فتتحقق مفاسد عظيمة ، ولهذا يجب إدراك حقيقة الفريضة ولماذا كانت واجبة وما هي العبادات القائمة عليها وما هي العبادات التي لو انتفت انتفت معها هذه الفريضة ، ويوازن الإنسان بين الفريضة وبين ما فات من شريعة الإسلام مما يقابلها فهذا من الواجبات على الحاكم والمحكوم وعلى جميع الأمة ليتحقق دين الله عز وجل على ما يريده الله لا على ما يريد الإنسان وهواه .

ماهية الاجتماع

كل الأمم تدعو للاجتماع سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة فنجد اليهود والنصارى يدعون للاجتماع على رايتهم وكذلك الملاحدة والزنادقة فكلٌّ يدعو للاجتماع على رايته ، وكذلك أهل الإسلام يدعون للاجتماع ، لكن على ماذا يجتمعون ؟ .

نقول : لا يمكن أن تجتمع الأمة إلا على دين الله تعالى لا على عقول البشر وأسبابهم المادية ولهذا يقول الله تعالى ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال :٦٣) يعني أن الاجتماع الذي حدث للأمة مهما استعملت فيه من القدرة المادية لا يمكن أن يتحقق بين الناس من جهة اختلاف الناس من أعرافهم وأجناسهم وغير ذلك مما يدعو للانقسام ولذلك يقول الله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ وكذلك يقول تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران :١٠٣) والمراد النعمة هو الإسلام كما في قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) فالنعمة التي أمر الله بالاجتماع عليها هي الرسالة الربانية لا رسالة فلان من الناس ولا الطائفة والجماعة الفلانية ، فمن أراد أن يجمع الأمة على عرق أو قبيلة أو على أرض فهو اجتماع مذموم ولا يمكن أن يكون محمود ولهذا ما مدح الله الاجتماع إلا ما كان عليه وما عداه يكون لطمع ومصالح وبمجرد ما تنتهي مصالحهم يقوم الناس بقتل بعضهم بعضًا وإهلاك الحرث والنسل وهذا مشاهد ، ولهذا وجد في الحضارة الغربية من إبادة الشعوب وخلق النعرات والتحريش بين الأمم لتُبقِى مصالحهم الاقتصادية من مأكل ومشرب ورفاهية فيقومون على أمور مادية لكن من جهة الحقيقة هم يهلكون الشعوب ، ولهذا الاجتماع المرحوم هو الاجتماع على أمر الله تعالى .

ولهذا جعل الله أمة الإسلام أمة مرحومة فما كان عليه كفار قريش والعرب قبل البعثة كانوا يتقاتلون فيما بينهم وربما قُتِل في العام الواحد أكثر مما قتل في عهد النبي ﷺ سواء كان في العهد المكي أو العهد المدني .

ولهذا أمر الله بالاعتصام ثم قيد الاعتصام بحبله قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران :١٠٣) وتأكد الأمر هنا بوجهين: الأمر بالشيء والنهى عن ضده فدل على تأكيد ذلك الأمر .

وعليه فإن فريضة الاجتماع المراد بها هو الاجتماع على الرسالة الربانية لا الفكرة البشرية أو الأمر المادي وأما ما عداه من أمور الحياة فيأخذون من مواضع الدنيا ما شاءوا فيأخذ هذا الوسط ويأخذ هذا الشمال ويأخذ ذاك الجنوب كلٌّ يسكن فيما يشاء ويلبس ما شاء ويتمتع بما يشاء بحدود الشريعة فالشريعة ترسم خرائط الحدود لا من جهة الدول كذلك من جهة العقائد والأفكار والأراء ثم تجعل مساحات يسير فيها الناس فقد جعل الله تعالى لهم حرية لكن هذه الحرية محدودة تفصل بين الإنسان وبين الحيوان .

الاجتماع مع الكافر

ما جاء عن النبي ﷺ في حلف الفضول هو من الرسالة الربانية ; فالله تعالى بعث النبي ﷺ ليقوم بأوامر الله ومنها أمر الاجتماع فالاجتماع من رسالة الأنبياء للبشر ، وأما التحالفات التي تكون بين المسلم والكافر على دفع الظلم من الطرفين فيما بينهما فهذا مما أمر الله تعالى به فالشريعة أمرت بالاجتماع والاجتماع مراتب ومن وجوه الاجتماع وجه الاجتماع على المفضول وترك الفاضل ومثل هذا الاجتماع يكون مؤقت لدفع الظلم .

ولهذا لابد من معرفة أولويات الحق فالحق له مراتب كحال الهرم فلا يمكن الاجتماع مع من هو مختلف معك على الأصول فتبقى معه من غير اجتماع مع شيء من التوقي والحذر أعظم من أن تظن أنك اجتمعت معه وهو لا يتفق معك على الأصل .

فحينما قويت شوكة النبي ﷺ في المدينة لم يقبل بطول بقاء اليهود في المدينة لأن النبي ﷺ يعلم أن الفارق بينه وبينهم هو دين الإسلام وسيكون هذا مدخل لهم لاستئصال شوكة الإسلام ، فاتخذ فترة العهدنة مرحلة لتحييدهم وإبعادهم وفصلهم عن جسد الإسلام .

فليس لنا أن نصالح العدو ثم نبيت معه تحت سقف واحد لايام وشهور ونظن أن الهدنة ستستقيم باعتبار الهدنة السابقة معهم . فمعرفة هذا من الأمور المهمة أن الله أمر بالاجتماع وهو على مراتب بمعرفة أولويات الإسلام فإذا اجتمع معك أحد مخالف للأصل فاعلم أنه سيتربص بك هذه الفترة فالمصلحة وقتية ; حتى أن النبي ﷺ لما عاهد اليهود مع أنهم لا يؤمنون بصحة الرسالة عاهدوه فلما أراد النبي ﷺ منهم دية رجل تربصوا به ﷺ وأرادوا أن يقتلوه ﷺ في زمن الهدنة! .

فالأمة لها أن تتصالح وتتهادن مع عدوها في شيء فرعي بحفظ الدم والمال لكن لتعلم أنه صلح وقتي وتتربص به ويجب عليها ألا تظن أنه صلح دائم وهدنة دائمة فلا تأمن منه ولا تسلمه نفسها ورقبتها وحقوق الأمة فسيستبيح بيضتها ويكسر شوكتها فتضعف الأمة بسبب ضعف هذا الأصل .

فضل الاجتماع وخطر التشرذم

فضائل الاجتماع تترتب على إدراك ماهية الاجتماع فهناك ناس تجتمع على الدنيا وأناس تجتمع على توحيد الله تعالى ولهذا إذا صلح الدين في أمة فإن الله يصلح ما دونه وما دونه ما يتعلق بشرائع الإسلام وانتظام الدول من حفظ الدماء والأعراض وإعطاء الحقوق فالأصل في الاجتماع أنه لا يكون إلا على الرسالة الربانية .

وقد كان العرب على قبائل وحسب ونسب وأعراق فيرون في أنفسهم قوة وتماسك وحينما جاء النبي ﷺ فرقهم ، وهناك مبدا يذم الفرقة من جميع الوجوه وهذا من الخطأ فالفرقة قد تكون محمودة والاجتماع قد يكون مذموم ، وهذا على حسب نوع الاجتماع وعلام يجتمعون !.

فلو اجتمع الناس على شر من الشرور أو على فتنة أو على أمر باطل فهذا الاجتماع مذموم ، ولو افترقت الأمة على الحق فهو افتراق محمود ؛ ولهذا لما دعا النبي ﷺ كفار قريش في مكة للإسلام كانوا جماعة وفرقهم النبي ﷺ فأصبح البيت الواحد من بيوت قريش فيه الأم تنازع ابنها والولد ينازع أمه بسبب الرسالة الربانية وهو اختلاف محمود لأنه اختلاف على الحق .

وكذلك في ثمود قوم نبي الله صالح كانت على يدٍ واحدة متكاتفون ولهذا يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (النمل : ٤٥) كان قوم صالح على يدٍ واحدة فريق واحد فلما جاء صالح أصبحوا فريقين فريق إسلام وفريق كفر فالاختلاف على الحق – والمراد بالحق التوحيد لا الحق المرجوح – أحب إلى الله من الاجتماع على الشرك والكفر ، فالاجتماع على التوحيد وتحقيقه ولو اختلفوا في جزئيات رحمة وخير من اختلافها وتفرقها وتشرذمها.

ولهذا إذا عرفنا الماهية الحقيقية لتركيبة الحق المحمود والفرقة المذمومة وكذلك الماهية الحقيقية لتركيبة الفرقة المحمودة والاجتماع المذموم ، إذا عرفنا هؤلاء الأربعة إذن نعلم ما هو فضل الاجتماع وهو باختصار :

١/ حماية الرسالة الربانية والتوحيد فما خلق الله البشرية إلا لتوحيده كما في قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات :٥٦) فالاجتماع في بلد واحد تحت ولاية واحدة على توحيد الله عز وجل ولو اختلفوا في الجزئيات خير من اختلافهم أوزاعًا ولو كان في بعضهم من الحق التام وفي البقية قصور والسبب في ذلك أن الشرائع ستتشتت وعدوهم سيتسلط عليهم ولهذا بين الله أن من يتبع الحق هم أهل الرحمة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨-١١٩) .

يعنى لوشاء لجعلهم على رأي واحد كما يخلق الله كثير من المخلوقات ولهذا تجد الطيور على نمط واحد لا تخالف بعضها بعضا ولا يعادي بعضهم بعضا تعيش فيما بينها بلا عدوان في داخل جنسها كالشاة لا تعتدي على الشاة الأخرى إلا ما ندر وغيرها من المخلوقات لا تتنازع فيما بينها وإنما ينازعها جنس أخر مثل الذئاب فالذئاب لا تعادي نفسها ولكن تعادي غيرها ، ومثل هذا الله قادر على أن يخلق الأمة عليه ولكن الله تعالى يبتلي الأمة بهذا الاختلاف لينظر من يجتمع على الحق ومن يختلف على الباطل .

٢/ قوة شوكة الأمة فإن عدوها يتهيب منها ولهذا تجد الأمم المختلفة المتشرذمة يتسلط عليها عدوها باستنزاف ثرواتها وقد جاء هذا المعنى من حديث معاذ بن جبل قال ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ)[٢] فأرشد النبي ﷺ لجملة من الأمور أهمها الاجتماع والتآلف حتى لا يتسلط عليهم عدوهم والعدو على نوعين إما الشيطان الذي يحرش بين القبائل والفرق حينئذ يستبيح بعضها بعض ويقتل بعضها بعض فتفترق ، وإما العدو الخارجي الذي يقوم باستنزاف خيرات الأمة .

فهذا من فضائل الاجتماع ولهذا يقول النبي ﷺ من حديث أبي الدرداء (مَا مِنْ ثَلاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاةُ إِلا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ)[٣] فأشار النبي ﷺ لأمر الصلاة والصلاة عبادة ربانية يستطيع الإنسان إقامتها لوحده لكن شُرعت الجماعة لمقاصد منها أن يجتمع الناس ويرى بعضهم بعضا فالعدو متربص بهم فإن لم يجتمعوا على الدين يتربص بهم العدو .

فمن الحكم العظيمة التي شرع الله لها الاجتماع العبادات . فالصلوات الخمس يجتمع عليها الناس خمس مرات في اليوم والليلة وكذلك الأعياد فلابد أن يلتقى الناس بعضهم ببعض والناس لديهم اختلاف فطري كاختلافهم في الأنساب والأرزاق وغيره من الاختلاف القدري وكل قبيلة تجد أنها

---

[٢]) رواه أحمد (٥/٢٣٣و٢٤٣) .

[٣]) رواه أبو داود (٥٤٧) وأخرجه كذلك ابن المبارك (الزهد)(١٣٠٦)وأحمد (٥/١٩٦ و٦/٤٤٦)والنسائى (الكبرى)(١/٢٩٦/٩٢٠) و(المجتبى)(٢/١٠٦) ، وابن خزيمة (١٤٨٦) ، وابن حبان (٢١٠١) ، والحاكم (١/٣٣٠ و٢/٥٢٤) ، والبيهقى (الكبرى)(٣/٥٤).

الأشرف وكل إنسان يجد أنه الأرفع والاشرف ، فتجد الشمالي يرى أنه أرفع من الجنوبي كل يدعي هذا ويدفعه ذلك لشيء من النفرة فجاءت الشريعة على اجتماعهم بجانب من جوانب العبادة لكسر تلك النفرة فإذا شاهد بعضهم بعضا ورأى من حسن الخلق تغير قلبه من جهة أخيه فتُدفع في ذلك مفاسد عظيمة منها وساوس الشيطان فالشيطان يحرش بين المتباعدين ما لا يحرش بين المتقاربين ، فالإنسان إذا كان بينه وبين شخص بعد يوسوس الشيطان ويجد غرسًا في قلبه لأنه بعيد عن ذلك الرجل لكن لو كان يراه كل يوم أو كل أسبوع فلا يمكن للوساوس أن تنبت فلا تنبت إلا بالفجوات والبعد ولهذا جاءت الشريعة بأنواع الاجتماع لتقوى شوكة الأمة وحينئذٍ يتهيبها عدوها .

ولهذا تجد في قول النبي ﷺ (قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنكُمْ، وَلَيَقذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ». فقال قائل: يا رسول الله! وما الوَهَن؟ قال: «حُبُّ الدُّنيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوتِ)[٤] غثاء السيل متشتت تأتيه الرياح تمزقه لا يؤثر على أحد باعتبار عدم تماسك بعضه مع بعض فيستبيح العدو الأمة ويستضعفها ويحرش بينها فلا يتحقق لها القوة ولا يتحقق لها رحمة من الله تعالى .

الاختلاف القدري في الأمم

قد جعل الله تعالى فطريًا في الناس أن ثمة تابع وثمة متبوع وثمة كبراء وثمة صغراء وهذا مما يرحم به الله عز وجل الأمم أن يوجد فيهم قادة ولهذا تجد أن الأمة لابد أن تخرج رموز إن كانت قبيلة لابد أن يكون لهم رأس أو مجدد كما جاء في الحديث (إِنَّ اللهَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)[٥] وهذا الحديث عند أبي داود وفيه كلام .

[٤]) رواه أبو داود (٤٢٩٩) وأحمد (٨٢/٣٧) .
[٥]) رواه أبو داود (رقم/٤٢٩١) .

فإذا كانت الأمة ذات علم لابد أن تخرج الاعلم إذا كانت أمة مال لابد أن تخرج الأغنى فلابد من إخراج رؤوس فيخرجون من بينهم الأحسب أو الأغنى أو الأعلم بحسب حالهم وهذا الأمر فطري ليس موجود في ذات الإنسان بل إنه موجود في جنس الحيوان كذلك فلابد من وجود سادات .

والشريعة جاءت بتوجيه القائد وكذلك توجيه الأتباع باستصلاح أمرهم ومعرفة حالهم فربما التابع يقود للنار ويهلك قومه مثل فرعون كما في قول الله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود : ٩٨) فيوجد مستضعفون ويوجد كبراء ويوجد حاكم ومحكوم لكن العبرة على ماذا يقاد وعلى ماذا يتبع ؟ لهذا ذم الله تعالى كل قيادة لا تحكم بأمر الله سبحانه وتعالى وعلى غير شرعته وبين أن أمرهم إلى شتات لهذا كما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره يقول النبي ﷺ (وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ) [٦] .

فالقيادة في الأمم إذا كانت على غير مراد الله على اللون أو الحسب والنسب أو على القطر كان أمرهم إلى شتات ، وهذا يتعدد فتجد في البلدة الواحدة عشرات من الأنساب والعوائل متعددة جدًا فكيف بالدول الكبيرة !.

أما الدين مهما يختلف في فروعه أو الأصول لا يمكن أن يوازي عدد الاختلاف في الأمم من الجهات الفطرية الأخرى كاختلاف الأجناس والألوان والأعراق وغير ذلك ;ولهذا يقول النبي ﷺ كما في حديث (أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً) [٧] وفي رواية (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) [٨] وهذا العدد ثلاثة وسبعون من

---

٦) روى ابن ماجه في «سننه»، باب العقوبات، (١٣٣٢/٢) ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٤٦/١٢) عن جعفر بن محمد الفريابي، عن سليمان بن عبدالرحمن ابن بنت شرحبيل الحمصيّ، به، مختصراً، وذكر ما يتعلق بمنع الزكاة فقط.

٧) رواه التّرمذي (رقم ٢٦٤٠)، وأبو داود (رقم ٤٥٩٦) في سننه ومن طريقه البيهقي في السّنن الكبرى ٢٠٨/١٠ رقم (٢٠٩٠١)،وابن ماجه في سننه (رقم ٣٩٩١)، وابن حبّان في صحيحهِ ١٤٠/١٤ رقم (٦٢٤٧) وفي ١٢٥/١٥ رقم (٦٧٣١)، والحاكم في المستدرك (رقم ١٠ و٤٤١ و٤٤٢)، وأحمد ١٢٤/١٤ رقم (٨٣٩٦) وأبو يعلى ٣١٧/١٠ رقم (٥٩١٠) وفي ٥٠٢/١٠ رقم (٦١١٧) في مسنديهما، وابن أبي عاصم (رقم ٦٧) والمرْوَزي (رقم ٥٨) كِلاهما في كتاب السنّة له، والآجري في الشّريعة (رقم ٢١ و٢٢)، وابن بطّة في الإبانة الكبرى ٣٧٤/١ (رقم ٢٧٣)، وعبد القاهر الجرجاني في الفَرق بين الفِرق (ص٤)..
كلّهُم من طُرُق عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً."

٨) رواه التّرمذي (رقم ٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقي في المغني (٢٨٤/٣): أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه ، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف ابن مالك (وهي الجماعة) وأسانيدها جياد ، وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي). .

النبي ﷺ سواء أريد به أصول الفرق وهذا هو الأظهر أو جميع الفرق على قول بعض العلماء ، إشارة إلى أنه ثمة عدد مختلف لكنه لا يمكن أن يكون بوفرة اختلاف أعراق الناس ولغاتهم والأنساب والأعراق واللون واللغة فتجد في الهند أكثر من ثمانمائة لغة وتجد الأعراق والقبائل والشعوب متعددة لو رجع لهذه القيادات وأخذ بهذا الترتيب لن تجتمع الأمة ، لهذا جمع الله الأمة على الدين وتبعة اختلاف الامة على الإسلام أرحم بالأمة من اختلافها على القبيلة والحسب والأرض والنسب .

والبعض يحتج بأن الله عز وجل قد أوجد الاختلاف فلماذا يشدد على الناس في الاختلاف ويطلب منهم طريق معين ؟ .

نقول : إن الله تعالى أوجد الاختلاف قدرًا كما قدّر الله وجود الأمراض والأسقام فهل نحتج بوجودها أن نتناول السم لمجرد أن الله أوجده !.

وأوجد الله تعالى سيئات الأفكار كما أوجد سموم الأطعمة لابتلاء من الله تعالى أن نبتعد عنها ، فنحن مأمورين بالاجتماع ومأمورين بالابتعاد عن الفرقة ، نبتعد عن الفرقة وعن أسبابها ، فليس للإنسان أن يحتج بالاختلاف والإيجاد القدري الكوني للاختلاف ثم يسوّغ لنفسه ارتكابه ، فهذا من ضعف العقل وضعف الديانة ، فمن ضعف العقل أن نركب كل شيء وجد في الطبيعة وشرب كل شيء وجد في الطبيعة ونأكل كل شيء وجد في الطبيعة ، ولهذا تجد الناس في أمر دنياهم يدركون خطر الأمراض فيبحثون عن أدوية فرارًا من الموت فكذلك لابد من البحث عن علاج الاختلاف والابتعاد عنه قدر وسع الأمة فتقلل الفرق من التسعين فرقة للخمسين إن استطاعت للثلاثين لتجتمع وتجمع شتاتها فتكون أمة واحدة قدر الوسع والإمكان فنحن مأمورين بالتقليص لا مأمورين بالتوسع في دائرة الاختلاف وإن كان الاختلاف موجود فإيجاده ابتلاء من الله سبحانه وتعالى لا تشريع للعباد فيكون الاجتماع سنة والاختلاف على خلافه .

مآل الاجتماع المادي والاجتماع الشرعي

الناس بفطرها تحب الاجتماع ، لكن هناك الفكر الليبرالي يحاول تفكيك الناس حتى فيما هو معاكس للاجتماع الفطري ، فلدينا اجتماع الشريعة على الدين والرسائل السماوية ولدينا اجتماع الفطرة على الحسب والقطر والبلد ، تجد الفكر الليبرالي ضد كل هذا فلا يرى أن الفرد له صلة بالأخر فعطّل كل شيء حتى الزيجات لا يؤمن بها ففكك أوصال الشجرة الفطرية فضلا عن الشجرة الشرعية التي أمر الله تعالى بها .

ما هو الأمر الذي يُثبّت الناس على الاجتماع ؟ .

إذا أرادت الأمة أن تجتمع فلتعلم أن ثمة أسباب مادية تجتمع عليها الأمم وثمة أسباب شرعية تجتمع عليها الأمم ولابد أن تعلو الأسباب الشرعية على الأسباب المادية وإذا حدث العكس فهو تحذير للأمة لا اجتماع فقد تجتمع أمة على المادة والاقتصاد لكن بمجرد الفقر سيكون فيها القتل أشد لو كانت مجتمعة على الإسلام على فقر وضعف وربما اختلاف فقر وطوائف .

لهذا يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ مبينًا أن الاجتماع على الرسالة السماوية لا على المادة ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(الأنفال :٦٣) يعني لو أتيت بأموال الدنيا جميعًا لا يمكن أن يجتمعوا كما جمعهم الله على الرسالة الربانية وتوحيد الله تعالى فقد يكون هناك اجتماع مادي وقد يكون هناك اجتماع شرعي .

وقد يتساءل البعض : أن هناك دول الغرب فيها من التراحم والتآلف المادي ما لا يوصف من قوته بينما في الدول الإسلامية قتل وسفك وتناحر أشد من تلك الدول المجتمعة على المادة مع الكفر ؟ .

نقول : الله تعالى أخبر وهو صادق فيما يخبر أن الاجتماع على المادة تخدير للأمم ولذلك سمى في الزكاة المؤلفة قلوبهم لأن العطاء يستميل القلب لكن لا يشتري ولاء فلا يكون له الولاء التام ، ولذلك النبي ﷺ كان يعطي صناديد العرب لتنفرج قلوبهم من العصبية والجاهلية حتى يقذف الحق ويتقبلوه ثم لا يحتاجوا تأليف مادي .

الآن الدول الغربية بينها تآلف وقوة مادية واجتماع على المادة ملحوظ ما لا تجده في بلدان الإسلام لكنه لا ينقض القاعدة فتلك الدول تستمر وتعيش على الحفاظ على المادة ولو أهلكت شعوب ولو خلقوا حروب في جميع دول العالم فهم من يقومون بالتحريش بين الدول وبيع السلاح وخلق مشاكل حدودية فيسكنون أنفسهم ويقومون بقتل غيرهم ولا يمكن استمرار الحياة الغربية إلا بذلك لأنهم يعلمون إذا زال الغنى وجاء الفقر وذهب الغنى نحر بعضهم بعضا وهذا موجود كثيرا جدًا .

فالكوارث الاقتصادية تخلف ما لا يمكن تصوره من الهلع والخوف فهذا مخدر كحال تخدير ألم الإنسان ، أما الإسلام إذا ثبّت أمة لا يمكن أن تتنازع في حال الغنى أو الفقر لهذا الصحابة بعد النبي ﷺ أدركهم الجوع والعطش والشدائد واللأواء وفيهم من الثبات والتماسك والاجتماع لأن اجتماعهم على الإسلام فكان فيهم من التراحم ما ليس عند غيرهم .

ولا يمكن أن يدوم الغرب على الغنى ولو أن الغرب أقبل على مرحلة فقر فسيكون فيه من القتل والإبادة أكثر مما كان في الإسلام ولهذا العبرة بالمحصلة النهائية ، فالغرب في القرن الماضي قُتِل فيه أكثر من مائة مليون وكله بسبب الحرص على المادة والدنيا وما كان هذا العدد من القتل في أمة الإسلام قبل ، ولهذا يستميت الغرب على الحفاظ على والاقتصاد والمادة ويحملون همّ المادة والفقر أعظم من هم الكفر بالله تعالى والفطرة ولو نابذوا وكابدوا عليها .

كيفية التعامل مع الطوائف المتعددة في البلدان

الإشكالية في كثير من البلدان أنه توجد طوائف كثيرة جدًا وكل يدعي أنه قريب من الحق وقد أخبر النبي ﷺ عن كثرة الطوائف وهذا مصداق لقوله ﷺ (تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)[٩] يعني متوعدة بالنار وهناك طوائف خارج الثلاثة والسبعين تدّعي أنها من الإسلام وليسوا من الإسلام وهي طوائف الزنادقة والجهمية فهؤلاء ليسوا من طوائف الإسلام الثلاثة والسبعين .

ولكن المقصود بهذا الحديث هم الطوائف البدعية ويجب ألا نلتفت للمسميات ونلتفت لحقيقة الإتباع للنبي ﷺ وأعظم إتباع هو ما كان بالدليل والتفسير الصحيح من السلف والتابعين ومنهج القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وأتباعهم كما جاء في الحديث عنه ﷺ (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[١٠] فسلوك الطريق الموصل لابد من المرور عن طريق أولئك .

والذي فرّق الأمة سببان : السبب الأول : الجهل ، والسبب الثاني : الهوى .

وربما تشكلت طوائف ومذاهب بسبب الهوى ويظنون أنهم على علم وحق لهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح (إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا ، فَاسْتُفْتُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[١١] .

---

٩) سبق تخريجه انظر ٧ .

١٠) رواه البخاري (٢٥٣٠) ومسلم (٤٧٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود.

١١) رواه البخاري : كتاب العلم (١٠٠) ، ومسلم : كتاب العلم (٢٦٧٣)

لكن ما الواجب على العوام في هذه الطوائف ؟.

الواجب على العوام في هذه الفرق والطوائف ألا يلتفت للمسميات وإنما السبيل هو سبيل الله كما في قول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف :١٠٨) فأعظم ما يفرق الأمة التحزب لفئات وجماعات وهو الذي يولد البدعة والانحراف والعصبية وترك الحق باعتبار أن هذه الفئة عليه والله تعالى يقول ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام :١٥٣) فعلى الإنسان أن يبتعد عن الطوائف البدعية بعيدًا عن التحزب ويتبع أقربهم للدليل والعمل . ثم يحاول البحث عن الدليل بنفسه في كل مسألة وإياه أن يتعبد لله بقول الشيخ الفلاني والقول الفلاني والقطب الفلاني فيوم القيامة يسأله الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص :٦٥) ، وقد حذر الله تعالى من الفرقة كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(الروم :٣٢) فهذه الفرق والطوائف تختلف من جهة إصابتهم للحق وأقربهم للحق هم الذين يتبعوا النبي ﷺ .

وحقيقة الاجتماع أن الله تعالى قد حمد الاجتماع ولم يحمده على الإطلاق وذم الفرقة ولم يذمها على الإطلاق فهذا من الأمور المهمة : علام كان الاجتماع وعلام كان الافتراق !.

وأولويات الإسلام وتراتيبه هي من الأمور التي تحل الكثير من الإشكاليات في أهمية الاجتماع من عدمه فتجد بعض الناس يُصدّر قول يحدث بلبلة بزعمه أنه اجتماع وهو على خلافه ; فلابد من معرفة متى يكون الاجتماع محمود ومتى يكون مذموم .فلابد من النظر للحق فما كل حق يُقبل فقد يكون تأثيره على ما هو أعظم منه .

وكذلك يجب أن نفرق بين الأمر القدري في وجود الاختلاف وبين الأمر الشرعي بالحث على الاجتماع ، فأوجد الله الاختلاف قدرًا وأمر بالاجتماع شرعًا ونحن مأمورون باجتناب الاختلاف ابتلاء من الله كما مأمورين باجتناب السموم والأذى وإنما أوجده الله ابتلاء واختبار ليميز الناس فيما بينهم من جهة أهل الحق والإتباع من أهل الضلال والابتداع والله أعلم .